القيم الجمالية والتربوية في أغاني الأطفال بمنطقة تلمسان

أ. د. أحمد عزوز/ جامعة وهران.
Abouamel1989@yahoo.fr

الملخص:

[يقف القارئ في هذه الدراسة عند أهمية العناية بالتراث لعلاقته بالتماسك الاجتماعي، وذلك بالتركيز على الثقافة التي تعد العامل الأساس والمحرك لدولاب التنمية ولعجلة النهضة، وقد جرى تسليط الأضواء على الأغنية لكونها وسيطا ينقل القيم الجمالية والأخلاقية من خلال الإيقاع والكلمة والحركة، وخصصت هذه الدراسة لنصوص أغاني الأطفال مما أورده وليام مارسيه في كتابه(لهجة تلمسان.]

مقدّمة

من المعروف أن طفل اليوم هو رجل الغد، وصناعة مستقبل الأمّة تستلزم إعداده إعدادا متميزا؛ لأنّ إليه ستوكل المسؤوليات وتسيير الهيئات وقيادة المؤسسات، ومن هنا كانت العناية بتنشئته لأداء هذا الدور العظيم.

ولا شك في أن هناك سبلا وطرقا كثيرة للقيام بهذه الوظيفة؛التي تتركز أساسا على مجموعة من الرسائل ذات المضامين الهادفة توافق مراحل نموّه فتقولب عقله وعواطفه ومستوى خياله وتغرس قيما جمالية في ذاته ونفسيته سيتصور بها العالم وفي ضوئها يراه.

ولعل من تلك السبل تعليم الطفل وتحفيظه أغاني منذ صغره يردّدها بالمناسبة وبدونها،مع ذاته أو مع أقرانه،فتشكل المعاني والأفكار التي تحتويها فكره وعقله. ومن ثم فإنّ الإشكالية التي تطرح تتجلّى في ماهية القصائد والمقطوعات التي يحفظها الطفل وما نوعها ؟ وما القيم الأخلاقية والجمالية التي تتضمنها؟

ونحن إذ نسجل هذه الأسئلة فإننا نركز على مقطوعات كان يرددها أطفال في تلمسان منذ زمان.وأقلّ ما يمكن عن تاريخها هو بداية القرن التاسع عشر،ومن هنا سنسعى لوضع موازنة – أيضا- بينها وبين ما

يحفظها الأطفال في هذا الزمان وفي القرن الواحد والعشرين وما نوعها وما خصائصها.

إننا نقصد بالقيم تلك القواعد والقوانين التي ترسخ في ذهن الإنسان فتصبح سلوكا وثقافة يؤمن بها ويتّخذها نبراسا ونموذجا يقيس بها الواقع والعالم ويحكم بها على تصرفات الناس وسلوكاتهم وتجاربهم وقيمهم،ومن ثم يفهم حياتهم ويتفاعل بها معهم ويتواصل بهم ليتأثر ويؤثر فيهم.

والملاحظ اليوم أنّه تزايد الاهتمام بحياة الطفل بفضل تنامي أصوات الهيئات والجمعيات والمؤسسات العلمية والقانونية لما وجدوه من أهمية في الموضوع الذي لا يمكن أن يتأسس مجتمع بدونه؛بل ينهار ويكون خاضعا للضعف والاستغلال والاستعمال إذا لم ينل هذا العنصر الأساسي في المجتمع أيّما اهتمام.

ومهما كانت الانتقادات الموجهة إلى التربية القديمة وفي رسائلها وخطابها المعلن والمستتر، فإنّ العصر الحديث يعيش أزمة التربية والقيم الأخلاقية أكثر من أي وقت مضى وقد تعود إلى عدة أسباب ليس مجال ذكرها في هذا العمل المختصر والوجيز.

والواقع إنّ الأغنية ليست للتسلية فقط كما يعتقد البعض؛ وإنّما تطرح قضايا اجتماعية؛فتتناول الفضيلة والعدالة والتعاون والتعارف والتواصل وتحث على المعروف والخير وفي المقابل تنبذ العنف والظلم والاستبداد والشر ومن هنا كانت الأغنية مصدر تنوير للطفل ووسيلة وعيه وتثقيفه وتعليمه.

وإذا كان الناس اليوم لا يولون عناية لما يحفظ أبناؤهم فإنّ العاقبة تظهر في الكبر حينما لا يستطيعون تقويم اعوجاجهم. أو يرفضون نصحهم ولا يقبلون القيم التي يودّون غرسها في كبرهم.

ولهذا نستطيع أن نقول إنّ الأغنية وسيط ينقل القيم الجمالية والأخلاقية للطفل، تتجاذبها عناصر ثلاث هي: الكلمة والإيقاع والحركة،فتشكل هندسة منسجمة من الأفكار والمعاني التي ترسخ في ذهن الطفل.

والواقع إنّ الأمّة تبني ذاتها وشخصيتها حين الشعور والإحساس بالميل القوي نحو ثقافتها وهويتها وتاريخها، وحين تدرك دورها الحضاري ماضيا وآنيا

ومستقبلا، وأنّه لا مناص من التطوّر إذا لم تهتم بثقافة مجتمعها، والجزائر بسعتها الجغرافية وتنوّعها الثقافي أرض خصبة وثرية للاكتشاف والإبداع.

إنّ الاهتمام بالتراث هو عناية بالتماسك الاجتماعي، وما يشدّ أزره، الذي يتجاوز به المجتمع الصعوبات والعقبات، ودفن هوّة الفتن ـ إلى غير رجعة ـ والتي سعى المستعمر الفرنسي بكلّ قواه إلى زرعها وإشعال فتيلها لأتفه الأسباب، وفي كلّ الظروف ليبقى سيّدا وأسدا على الدوام وطوال العهود والأزمان.

ولعلّ العامل الأساس والمحرّك لدولاب التنمية وعجلة النهضة هو الثقافة بكلّ المقاييس والامتيازات، ولقد أدركت شعوب آسيا ذلك فحافظت على تراثها وتشبّعت ثقافتها وطوّرت منها فكان العلم والتكنولوجيا.

ولقد اخترنا نصوص أغاني الأطفال ممّا أورده وليام مارسييه في كتابه عن "لهجة تلمسان" الصادر في 1902، وهذا لمجموعة من الأسباب نذكر منها:

أ ـ لقد تحدّث وليام مارسيه عن قضايا وظواهر مرتبطة بالحياة الثقافية والاجتماعية في المجتمع الجزائري عامة ومدينة تلمسان خاصة.

ب ـ كما سجّل نصوصا تعدّ من ذاكرة الأمّة الجزائرية ومن الضمير الجمعي، ولذا عدّها ميدانا للدراسة أمرا مهمّا خاصة إذا علمنا أنّه مرّ عليها أكثر من قرن، ولم يكن تحليلها مشفيا لغليل ونهم الباحث.

ولقد كتب الأغاني في اللهجة التلمسانية بحروف لاتينية وهو أمر طبيعي، وزعم ومبدأ تبنّاه أغلب المستعمرين والمستشرقين منذ أن وطئت أقدامهم الأوطان العربية والإسلامية، وهذا لزعزعة الكيان العربي لأنّ خلخلة المجتمع ينطلق أساسا من زلزلة كيانه اللغوي، فصبّوا كلّ جهدهم للدعوة إلى الكتابة بالحروف اللاتينية للقضاء على اللغة العربية ثمّ يأتي بعد ذلك القضاء على المرجعية الفكرية والمعرفية والمكوّنات الاجتماعية للأمّة العربية الإسلامية، ولكن التاريخ والواقع لفظا تلك الدعوة، وها نحن بعد أكثر من قرن وكأنّ الدعوة ما تزال في مهدها فلم يكتب لها النجاح والانتشار.

1 ـ حياة وليام مارسيه وآثاره

ولد مارسيه في 1872 بران Rennes في فرنسا، اهتمّ منذ صباه بحياة العلماء ومطالعة كتب المفكّرين، وكان شغوفا بإشباع ذوق فهمه، فاجتمعت لديه ثقافة واسعة سخّرها في البحث اللساني، ودراسة اللغات السامية، واختصّ في اللغة العربية.

وقد لقي التشجيع من الحكومة الفرنسية المستعمرة للجزائر، إذ عيّنته في 1898 مديرا للمَدَّرْسَة (La Medersa) بتلمسان، أين وجد نفسه في بيئة غنية ساعدته على تعلّم لهجة تلمسان، فكتب كتابا في 1902 بعنوان: "اللهجة العربية المتكلّمة في تلمسان- النحو،النصوص والمعجم-"(Dialecte parlé à Tlemcen-Grammaire ;Textes et Glossaire) [1].

وقد وصفه وليام مارسيه بقوله:"هو نتاج دراساتي العربية والإسلامية في تلمسان لمدّة أربع سنوات"[2].

جعلت وظيفة مارسيه في احتكاك يومي مع الفقهاء والعلماء الذين كانوا يعلّمون الشريعة الإسلامية وأحكامها، وعلم التوحيد واللغة العربية الفصحى وآدابها.

كما كان يطالع الكتب الأدبية التي احتوتها مكتبة المَدَّرْسة، فاكتسب المعرفة المباشرة لمبادئ الإسلام، التي فهم بها تلاميذه، وعائلاتهم، وسلوكاتهم، وعواطفهم، وكذلك اللغة التي يتخاطبون بها، وهي التي ركّز عليها لأنّها الوسيلة التي يصل بها إلى كلّ ذلك[3].

كما أنّه ينتمي إلى تيار الدعوة إلى دراسة العاميات العربية واللهجات لإبعاد أبناء الأمّة العربية عن الفصحى لغة التاريخ والحضارة والعلوم والقرآن.

حصل على شهادة اللسانس في الحقوق، وبعد ذلك حضّر شهادة الدكتوراه في سنة 1898 في القانون الإسلامي بعنوان: (Les parents et alliés successibles en droit musulman) (الوالدان والأصهار المستحقون للإرث في الشريعة الإسلامية)، عيّن مديرا لمَدَّرْسَة الجزائر العاصمة في 1904، ثمّ مفتّشا عامّا لتعليم الأهالي في 1909، فمديرا للمدرسة العليا والأدب العربي بتونس سنة 1913.

درّس اللهجات العربية بدءا من سنة 1916 في مدرسة اللغات الشرقية بباريس.

عيّن عضوا في الأكاديمية الفرنسية وقد وصف في حفل تأبينه بأنّه من أكبر المستعربين، واهتمّ كثيرا بما كتبه المستشرق رينان (Renan)، وأوضحت كتابته قناعته الاستشراقية المتحيّزة منذ اهتماماته الأولى بالعربية والدين الإسلامية وبجغرافية المغرب العربي والجزائر خاصة. توفّي سنة .1956

2 ـ مؤلفاته:

لقد ترك وليام مارسيه مؤلّفات كثيرة ما بين الأعمال المترجمة والمقالات والكتب والمحاضرات، نشرها GASTON DEVERDUN في موقع الأنترنيت www.tabbourt.com تحت عنوان بيبليوغرافيا وليام مارسيه وهي تعود إلى سنة 1961، نقتطف منها ما يلي:

1-William Marçais ; Dialecte Arabe parlé àTlemcen-Grammaire,Textes et Glossaire ;Paris .Editeur,Ernest Leroux,1902.

2 ـ دور المدارس الشرعية اتّجاه المغرب ، في سنة 1900.

3 ـ بعض الملاحظات على المعجم التطبيقي العربي الفرنسي لبوسييه، منشور في المجلة الإفريقية بمناسبة المؤتمر العالمي 16 للمستشرقين، وكان ذلك في سنة .1905

4 ـ البخاري، التقاليد الإسلامية، مترجم من العربية بالتعاون مع هوداس(منشورات مدرسة اللغات الشرقية الحيّة)، باريس؛ من سنة 1903-1914.

5 ـ متحف تلمسان، سلسلة المتاحف في الجزائر، منشور في ج:8، باريس، سنة:.1908

6 ـ ملاحظات حول كتاب طوق الحمامة لابن حزم، منشورات الدراسات العليا بالمغرب، ج:18، باريس. سنة:.1928

7 ـ قرن من البحوث في ماضي الجزائر المسلمة (سلسلة التاريخ والمؤرّخون الجزائريون)- سلسلة المئوية الجزائرية- باريس. سنة:.1931

8 ـ خطاب وليام مارسيه في حصّة اختتام المؤتمر الثاني لاتّحادات المجتمعات العالمية لإفريقيا الشمالية"، منشورات جمعية المؤرّخين الجزائريين، الجزائر، سنة:.1936

9 ـ كيف تعرّبت إفريقيا الشمالية ـ تعريب المدن ـ (في كراريس معهد الدراسات الشرقية)، سنة:.1938

10 ـ كيف تعرّبت إفريقيا الشماليةـ تعريب الأرياف ـ في كراريس معهد الدراسات الشرقية ـ الجزائرـ ج:14، ص:5- 17.

الأغاني :قراءة في المضمون والقيم:

1- شُدْو الدُّرّاس*

الدْرِيسْ وَلْهْرِيسْ

الله ينعَلكيابْلِيس
طَابتْ ماخَابتْ
مْايَةْاحْمَلْ وْرَاهَا جَابتْ
دَوْرُوا بَاشْ تْرَاوْحُوا
آهْ يَا لْلَاحْ النْهَارْ رَاحْ
هَرُّوهَا وْذَرُّوهَا
يَلَّا جَاتْ الحَلْوى نَشْرُوهَا

الملاحظ أنّ المقطوعات قليلة الأشطر، حتى يسهل حفظها وترديدها من قبل الأطفال، وهي مسجوعة شطرين شطرين أو ثلاثة ثلاثة، وراويها هو السين والتاء والحاء والهاء الممدودة.

وإلى جانب الموسيقى الخارجية التي تحققها هذه المقطوعة ؛ يشير مضمونها إلى أنّ الفلاحين هم الذين يردّدونها مساء قبل الرواح،وهم يحثون بها حيوانات الدّرس لمزيد من الاجتهاد، وهو حديث العاقل لغير العاقل، وهو إيحاء عن التعب والمشقة والبحث عن الراحة للطرفين.

وأغاني الدرّاس ليست موجودة في تلمسان فحسب؛ وإنّما نجدها أيضا في منطقة عين الصفراء،وكان قد نشرها ألفريد بال[4](Alfred Bell) في الجريدة الأسبوعية،وضمّنها في مقال "الجازية".

وللدارس طقوس وتبجيل لعملية الدرس،ومن ذلك الطهارة والوضوء والمشي حافيا، وذكر الله ولعنة إبليس،وهكذا تربو وتزيد الغلة.ولعلّ حساب الغلّة بعد الانتهاء من عملية الدرس يوضّح لنا ذلك الإيمان الراسخ في نفوس أولئك الفلاحين الطيّبين المؤمنين وعلى نياتهم "وإنّما الأعمال بالنيات" حيث يقولون:"- الله واحد(واحد). – بركتين(اثنان).- بركة سيدي رسول الله(ثلاثة).- نربحواانشاالله(أربعة).- خمسة في عين ابليس(خمسة). – في عين ولدو(ستة). – شبعة من عند الله(سبعة).ثان الشبعة(ثمانية). – نسعدواباالله(تسعة).- أصحاب النبي(عشرة).

وكلّ ذلك لترسيخ الإيمان في نفوس الأطفال ويوحي أيضا بالإيمان القوي بالله عزّ وجلّ.

2- أغاني الذُّراة

آه ياعوين البركة*
أَفْرَقْ بينَّا وْبيْنْ الشُّرْكة

آه ياعوين البحر
أفرق بينّا وبين الحضر
طَرَّفْ طَرَّفْ
البَاكُورْ خَرَّفْ

2- شُدْو الحدّاد

الصلاة على النبي يالحسَنِين
ياولاد النبي لَثْنِينْ
سيدنا الحسن والحسين
كِيس على كيس
الله يرحم مولاي ادريس*
فْتِيتَة على فْتِيتَة
الله يعطي لَعلمي حَالْبْنِيتَة
عُود على عُود
الله يعطي لمعلمي حَالْوْلِيَدْ

3- أغاني الأطفال

بوشقشاق طويل الساق
اداني عند مراتي
اعطاني قديدة
مالحة ولذيذة
خطفتها لي حالقطة
هي تجري وأنا نجري
حتى للباب العكري*

5- أغاني الأطفال

بوشقشاق شاق شاق
ياالله للبرج نلعبوا
نعطيك القمح والشعير
من ذاك النادر الكبير
ذيك النحلة القويطرة

على نوار الفول جالسة
تحدم في البرنوس والكسا
ولد السلطان ينكسا

6- أغاني الأطفال

افترقوا لا تنحرقوا
لا يجيكم أحمد قوقو*
يرفدكم على عنقو
ينحي جلدة من لحمو
باش يرقع سباطو
سباطو عند القاضي
والقاضي ما راه راضي
والنحلة بقُوطَيَتْهَا
والفروج بحاجيها.

فما يلاحظ في هذه الأغاني أنّ جميعها تذكر اسم الله والاعتماد على الله عز وجل في الحركات والسكنات، وهي توضّح بلا شكّ حرص الشعب الجزائري على تربية أبنائه تربية دينية إسلامية، إيمانية.

كما يسجّل الاعتقاد في الأولياء الصالحين مثل سيدي بلعباس وسيدي إدريس بالمغرب،وبحد العامل– أيضا- يدعو لراعيه ودون حرج وهو يدل على العلاقة الحميمة بينهما على الرغم من الفوارق الطبقية الموجودة.

ونلفي الوحدة الموضوعية في الأغنية وهذا ما لا نعثر عليه فيما تحفظه الأجيال اليوم، كما لا تجد من يقوّم لهم الأغنية أو ينتقدها على الرغم من أنّ لها تأثيرا كبيرا على التربية والتصور للواقع والمجتمع والحياة.

وإذا قمنا بقراءة سوسيو لسانية أو تداولية لما يحفظه الأبناء اليوم لوجدنا هوة كبيرة بين ما كان يطمح إليه الأجداد في غرس قيم اجتماعية وأخلاقية وجمالية وما يتعلّمه الأبناء اليوم.

ولنذكر من تلك الأغاني ما يأتي:

جيلي يا جيلي هي أنا عربي هه
دخلت البستان هه قطفت الرمان هه
حاوزني العساس هه بلبالا والفاس هه
خرجتلو يما هه بَلْبِيدُو والماء

خرْجَتلُو حَنَّة بليَدْالحنّى

فالملاحظ أنّه على الرغم من أن المقطوعة تبدأ بالانتساب إلى الجنس العربي إلا أنّها تنتقل إلى السرقة، وما دخول الطفل إلى البستان دون إذن من صاحبه وأخذه الفاكهة ثمّ جري الحارس وراءه إلا دليل على أنّها سرقة.

والغريب –أيضا- هو أنّ العائلة تحمي الطفل من الحارس على الرغم من أنّه سارق وهذا يؤكّد غرس الشرّ في نفوس الأطفال كأخذ ما ليس لها بالقوة وبغيرها. وتجد الأسرة تدافع عنه وتحميه ممّا يتعرّض إليه من خطر، وهذا الأمر يجعل صاحب الحق يندم على ما فعل أو يترك رزقه يضيع بين الناس.

كما نلفي الكلمات الأجنبية كثيرة في الأغنية ممّا يجعلها غير نقية ويكون لذلك تأثير على الفكر لأنّ هناك علاقة بين اللغة والفكر فهو الذي يشكلها بقدر ما هي تبنيه وتكوّنه.

وتدفع الدارس إلى التفكير في تنقية العامية من الألفاظ الأجنبية وليس من الفصحى كما كان الأمر في السابق. إذ لم يعد هناك مجال للمقارنة بينهما،فبدل أن كان الباحثون العرب يسعون لتنقية الفصحى من الغريب امتدّت القضية إلى اللهجة التي أصبحت الجملة فيها تحتوي على أكثر من كلمة.

كما لا تحتوي أغاني اليوم على الوحدة العضوية ممّا يتطلب النظر في صياغتها وبنائها ومراجعتها وتصحيحها؛ لأنّ في هذه الوحدة بناء منطقيا، الذي يتعلّم به الطفل تنظيم الأفكار وتنسيقها في الكتابة والكلام والحوار أي في التواصل الكتابي والشفوي؛ بل إنّ تلك الأغاني لا تتضّمن قيما معرفية أو جمالية يشعر بها من يسمعها.

ومن تلك الأغاني:

كانت عندي ببوية(دمية)
اسميتها حورية
طَلْعَتْلِي لْدَرْجْ النَاسْ
هرستلي بوقال الناس
غمضوا عينكم وإلاّ ربي يعميكم....
شوفوا مراكم.

وكذلك:

أمينة في الجبل مربوطة
بالجبل تعيط "حسن وحسين"
حسين في دارو
يكمي في قارو
ينقز حمارو
إي أو،إي أو،إي أو.

فلا هي احتوت على وحدة الموضوع، ولا موسيقى،ولا تركيب سليم بكلمات عربية، بل إنّ القضية تلصيق للألفاظ فيما بينها دون مراعاة شروط الأغنية في لغتها وإيقاعها وموضوعها ومضمونها وعلى أنّها مرآة للمجتمع وعبقريته وإبداعه من جهة، وعلى أنّها وسيلة من الوسائل التي يعتمد عليها في بناء العقل والمنطق والفكر لدى الفرد والجماعة.

وفي الأخير يمكن أن نشير إلى أنّ الأغنية بقدر ما تحمل مضامين وأفكارا عن الواقع والحياة والعلاقات الاجتماعية وتصور وتعكس رؤى الأفراد بقدر ما يفترض لأن تكون مشروعا خضاريا أساس أصول المجتمع وآفاقه التحدي للحاضر واستشراف للمستقبل لتحدث التوازن للشخص بين تراثه ويومه وغده.

إحالات:

[1] William Marçais, Dialecte parlé à Tlemcen, Ernest Leroux ;Paris,1902.

[2] -www.Persee.FR/web/

[3] - Voir www .jsto.org/stable/4O54952 by Maurice Gandfroy- Demombynes.

[4] - ألفريد بال:مستشرق فرنسي متعصّب،كان من أكبر الداعين إلى كتابة اللهجات الجزائرية بالحروف اللاتينية.شغل منصب مدير المدّرسة بتلمسان،وبعدها عمل مفتّشا للتعليم في كامل المنطقة الغربية.